فلسفة وثقافة الرجل الثاني

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 14 يوليو 2019

بقلم الدكتور زكريا خنجي

كلنا نتوق إلى أن نكون في موقع الرجل الأول في كل شيء سواء كنا رجالاً أو نساءً، فنحن نريد أن نكون في موقع الرجل الأول في المنصب، وفي الحياة، وفي الأسرة، وحتى في الشارع، لنحظى بأفضل مكان في موقف السيارات، وموقع المنزل، وكذلك نود بل نتوق إلى أن يفوز أبناؤنا - أيضًا - بمثل هذه المناصب. فالجميع يريد أن يكون الأول في كل شيء، وهذا حق، ولكن إن كان الجميع هو الأول فمن سيكون الثاني ومن سيكون في آخر الصف ؟

منذ سنوات بعيدة جدًا – ربما لا أستطيع تقديرها – شاهدت فيلمًا أجنبيًا، كان يدور حول موضوع سباق السيارات أو ما شابه ذلك، وأتذكر من أحداث الفيلم أن أحد أبطال الفيلم (ب) أحب بطلة الفيلم، ولكن البطلة كانت تحب البطل الأول (أ)، وكان البطل الأول هو الأول أيضًا في السباق، وبعد أن يئس (ب) من الظفر بالبطلة قال لها: أنه لا بأس أن يكون الرجل الثاني، ففي سباق السيارات هناك مفهوم يقول إن لم تستطع أن تكون البطل الأول فعلى الأقل كن المتسابق الثاني، فربما تتعطل السيارة الأولى أو تنفجر أو يحدث لها أي حادث، عندئذ ستكون أنت الأول.

لا أعرف لماذا ظلت هذه الفكرة مخزنة في ذاكرتي طوال كل هذه السنوات، ربما عشتها فترات من عمري، وربما شاهدت الكثير من التجارب والكثير من الناس يعيشون هذا المفهوم بطريقة أو بأخرى.

عندما كنت أعمل في بحثي في الماجستير، كان يدربني مساعد فني المختبر على المجهر الإلكتروني، وظل معي حوالي ستة أشهر حتى أتقنت العمل بالمجهر الإلكتروني، وخلال تلك الفترة كان يظل معي من بداية الدوام حتى نهايته، لم يكن كل هذا الوقت نتدرب، وإنما في فترات الاستراحة كنا نتحدث، وكان الأخ المساعد بدرجة الماجستير في التخصص ويعمل كمساعد فني مختبر، وكان يرأسه أحد الرجال الذي يكبره سنًا ولكنه أقل درجة علمية منه، وعادة كان هذا الرجل لا يأتي إلى المختبر إلا في بعض الأحيان وإذا كان الأمر يستدعي ذلك، وإن كان هذا الفني أقل درجة علمية من صاحبي فإن خبرته الفنية كانت عالية جدًا وهذا شيء لا يمكن إنكاره، وعندما سألته ذات مرة عن هذا الوضع قال: أنا أتوق إلى إدارة هذا المختبر، ولكن (هذا الرجل) أكبر مني سنًا، وأنا أحبه وأحترمه لخبرته ومهاراته وقدراته، فهو الذي دربني على كل صغيرة وكبيرة في هذا المختبر أثناء تحضيري لشهادة الماجستير، واليوم أنا أحضّر لشهادة الدكتوراه وما زال يعلمني ويرعاني، لذلك لا أريد مزاحمته أو مغالبته، فهو أستاذي، وعلى الرغم من ذلك فإنه يترك لي المختبر ومسؤوليته ساعات وأيامًا من غير

سؤال فهو يثق بي ثقة عمياء، وحتمًا سيأتي اليوم الذي سيتقاعد فيه عندئذ حتمًا سأكون أنا المسؤول الأول عن هذا المختبر.

وبالفعل، بعد سنوات عندما زرته ذات مرة، كان هو رئيس المختبر وكان يعمل تحت إمرته عدد من الفنيين، وكان يحمل عندئذ شهادة الدكتوراه.

هذه الثقافة مريحة جدًا وتأتي من منطلق الرضا التام بما قسمه اللّه سبحانه وتعالى لنا، وذلك مصداقًا لقول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حينما قال: عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلم: مَنْ يَأْخُذُ مِنْ أُمَّتِي خَمْسَ خِصَالٍ، فَيَعْمَلُ بِهِنَّ، أَو يُعَلِّمُهُنَّ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللّهِ، قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّهُنَّ فِيهَا، ثُمَّ قَالَ: اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلاَ تُكْثِرِ الضَّحِكَ، فإِن كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ. أخرجه أحمد والترمذي.

والشاهد في الموضوع هو قوله (وارض بما قسم اللّه لك تكن أغنى الناس)، فالرضا حالة من الاستقرار النفسي والوجداني والجسدي، عندما يعيشها الإنسان فإنه بالفعل تستشري في جسده كله الراحة والسعادة، فهو لن يضر أحدًا ولا يزاحم أحدًا ولا يكره أحدًا ولا يتسلق على أكتاف أحد ولا يدوس أعناق الناس حتى يصل إلى بداية السلم، فالرزق مقسوم والحياة تسير وفق نظام واضح وثابت وواضح، وكما يقول المثل الشعبي (لو تجري جري الوحوش غير رزقك ما تحوش).

ولكن الرضا بما قسم اللّه سبحانه وتعالى لا يعني أبدًا الركون إلى الدعة والاستسلام والترهل، والجلوس والتواكل وانتظار الرزق أو المجد أو تحقيق الطموح، فقد روى الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين أن أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه رأى بعد الصلاة قومًا قابعين في المسجد بدعوى التوكل على اللّه، فعلاهم بدرته، وقال: (لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، إنما يرزق اللّه الناس بعضهم من بعض، أما سمعتم قول اللّه تعالى: (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل اللّه).

لذلك يجب أن تكون فلسفة الرجل الثاني واضحة حتى لا تختلط بالترهل والدعة والاتكالية، فثقافة الرجل الثاني تسير بوضوح إلى الرغبة نحو التحرر من الكراهية والبغض ولتحقيق المجد والطموح والوصول إلى المعالي ولكن مع احترام الناس وعدم الرغبة في تحطيمهم من أجل الوصول إلى مناصبهم ومواقعهم، إذ إن ثقافة الرجل الثاني تعني – ببساطة – أن تكون أعيننا على المنصب أو المركز أو الموقع الذي نرغب فيه ولكن من غير الكراهية والوقيعة والحسد للأفراد، ومن غير نشر الدسائس والمكائد حتى نحطم البشر.

كما تعني فلسفة الرجل الثاني الموازنة والتوازن بين طموحاتنا ورغباتنا في الوصول إلى الأفضل بجدنا واجتهادنا والعمل الدؤوب للوصول إلى

تحقيق الطموح، وفي نفس الوقت وفي الطرف الآخر من الميزان احترام الآخرين والمحافظة على علاقاتنا معهم وعدم مزاحمتهم بهدف القضاء عليهم وأخذ أماكنهم، فإن تساوت كفتا الميزان فإن فلسفة الرجل الثاني تكون قد تحققت في حياتنا، أما خلاف ذلك فإننا نكون من الناس الذين لا يستحقون الحياة لأننا نكون قد تشربنا تلك الأخلاق التي تدعو إلى تحطيم البشر والحسد ونشر الكراهية في المجتمع.

وقد يقول قائل: ولكن بتطبيقي لهذه الفلسفة أو الثقافة فإني قد أظل في مكاني سنوات وسنوات من غير أن يتغير وضعي، فأنا ربما رئيس قسم وأطمح إلى الوصول إلى منصب المدير، فماذا أفعل ؟ وربما في الوظيفة أو المنصب الإداري نصبر وننتظر فالإجراءات تسير وفق أنظمة محددة وثابتة، ولكن ماذا عن الحياة نفسها ؟ ماذا عن مركز المؤسسة التي أنا صاحبها ؟ ماذا عن الكثير من الأمور الأخرى ؟ فإن تمت كل الأمور بمنهجية الرجل الثاني فإن الحياة تصبح مملة، فالأمور لن تتغير وربما تبقى من غير أن يتحرك ساكن لعشرات السنوات، والأوضاع تصبح كما هي، فالصراع اليومي والسنوي جزء أصيل من حياة الإنسان ورقيه وتطوره، فمن غير هذا الصراع لما تكونت الحضارات والعلوم والفكر، وما تم تأليف الكتب والمطبوعات والأبحاث، فالصراع على الحياة هو النار والوقود الذي يحرك كل هذا ؟

ثم من يضمن لي أن الرجل الأول سيترك لي فرصة الوصول إلى المركز الذي يتمتع به هو الآن ؟ قد يكون الرجل الأول من الذين يعانون من مشكلة

الخوف والكراهية للناس، أو أن يكون من الذين يعانون من مشاكل نفسية؟ فماذا يمكن أن أفعل، فقد يقضي عليّ وينهي وجودي بأي طريقة كانت ؟

قد تكون كل هذه التساؤلات مشروعة وواقعًا، ولكن تصور أنك في مركز متقدم فهل ترضى على نفسك أن يزاحمك الآخرون ؟ هل تريد أن يطيح بك رجل آخر من أجل أن يأخذ منصبك ومكانتك في المجتمع ؟ ماذا سيكون شعورك حينما يذهب إنسان ما ويتكلم من ورائك في المجالس والأندية ويقول عنك كلامًا مغايرًا لحقيقتك من أجل الوشاية والنيل منك ومن مكانتك الاجتماعية، حتى ينال مركزك ؟

وفي المقابل، فإن الصراع مطلوب ومهم وهو محرك الحضارات، وهذه حقيقة، ولكننا من خلال فلسفة الرجل الثاني نقول إن الصراع القائم على تحطيم البشر من أجل النيل بالظفر هو حرب وكراهية وحقد وحسد، وهذا النوع من الصراع هو صراع سلبي إذ ينتج عنه وصول فرد واحد على أكتاف الآخرين وإزالة وجودهم من المجتمع، فلن يستفيد المجتمع وإنما يمكن أن ينتشر بين أفراد المجتمع العديد من الأمراض النفسية والمجتمعية التي لا نرغب في وجودها بين أظهرنا.

ونحن هنا ندعو إلى الصراع الإيجابي، الصراع الذي ينتج عنه تطوير المجتمعات والحضارات، الصراع التكاملي، أنت تكمل نقاط الضعف التي أعاني منها وأنا أكمل نقاط الضعف التي تعاني أنت منها، ومن غير كراهية أو حسد وحتى من غير غيبة أو نميمة، أو نقل القيل والقال بين أفراد

المجتمع الواحد، وبذلك يتطور المجتمع، فلا أمراض ولا مشاكل تستشري بين أفراد المجتمع، وإنما يصبح هذا المجتمع مجتمعًا تكامليًا.

ونحن هنا لا نتحدث عن جمهورية أفلاطون المثالية؛ وإنما نتحدث عن أخلاقيات سامية، وخلق رفيع، مبني على فكرتين، الأولى: فكرة إدارية وهي العمل بروح الفريق الواحد، فالمجتمع عندما يعمل كله بروح الفريق الواحد من أجل المجتمع فإن ذلك يطور المجتمعات، وهذا لا يمت إلى الفكر الاشتراكي أو الشيوعي بصلة، وإنما العمل بروح الفريق الواحد يعني أن يعمل الجميع من أجل الفرد ويعمل الفرد من أجل الجميع، هذا التوازن يناقض الفكر الاشتراكي الذي يدعو إلى أن الفرد ما هو إلا ترس واحد لا قيمة له يعمل من أجل الجميع، لذلك فإن العمل بروح الفريق يعني أن يستفيد الفرد في ذاته ويطور نفسه ويصقلها وكذلك يتطور المجتمع كله عندما يتطور الأفراد.

والفكرة الثانية: هي فكرة العدالة الاجتماعية التي جاءت بها العقيدة الإسلامية، فالعدالة الاجتماعية في الإسلام يشتق مفهومها من العدل الذي هو خلاف الظلم، فالعدالة الاجتماعيّة منظومة فكريّة، ومنهج أخلاقيّ، وأحكام تشريعيّة مبنية على الشريعة الإسلامية، والتي تضمن للنّاس إن استقاموا عليها والتزموا بها المساواة أمام القانون، ونيل جميع الحقوق في الحياة بعيدًا عن الظلم والمحاباة.

ولعل من أبلغ القصص التي تروى عن العدالة الاجتماعية في العصر الإسلامي الأول قصة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه مع ذلك اليهودي العجوز، إذ تروي كتب السيّر أن أمير المؤمنين كان مارًا ذات يوم بسوق المدينة يتفقد فيها أحوال السوق، حينها شاهد شيخًا كبيرًا يسأل الناس حاجته مادًا يده طلبًا للمساعدة، اقترب منه أمير المؤمنين وسأله: من أنت يا شيخ ؟ فقال الشيخ الكبير: أنا يهودي عجوز أسأل الناس الصدقة لأفي لكم بالجزية، ولأنفق الباقي على عيالي ؟ فقال الفاروق متألمًا: ما انصفناك يا شيخ، أخذنا منك الجزية شابًا ثم ضيعناك شيخًا. ففرض له فرضًا شهريًا من بيت مال المسلمين.

لذلك يمكن القول إنه عندما تسود في المجتمعات روح العدالة الاجتماعية القائمة على الشريعة الإسلامية، فإنه حتمًا ستنتشر بين أفراد المجتمع فلسفة وثقافة الرجل الثاني، وهذا هو المطلوب حتى نرتقي بالمجتمعات وتتطور الثقافات وتبنى الحضارات.

وما زال للحديث بقية.